

نظرات في الأدب :

الأدب والمجتمع

كان من نتائج شيوع المذاهب الاشتراكية ، أن بدأ كثير من الكتاب - ولا سيما دعاة تلك المذاهب - يتجهون في كتاباتهم اتجاهًا جميعًا ؛ ويحاولون أن يعالجوا كل ما يمس المجتمع من قريب أو من بعيد ؛ ويجهدون - قدر الطاقة - في رسم كل إنتاج لهم بالميسم الاجتماعي . ولا شك أن هذا الاتجاه إلى معالجة شؤون المجتمع ، والنظر إليها هذه النظرة الفاحصة المحمصة لما يحدد أثره في النهوض بالشعوب والرقى بالأمم . ولا شك في أنه أيضاً اتجاه طبيعي إلى حد كبير ؛ وهو -

في ذاته - ممدقول ومجد ، لأنه يتفق وغلبة النزعة الاشتراكية على بلاد العالم جماء ... حتى الديمقراطية منها . ولكن كل هذا - وإن كنا نقره ونعترف به - لا يبرر - بأي حال - وجوب اتجاه الأدب - بوصفه فناً من الفنون الجميلة - إلى المجتمع ... والمجتمع فحسب ؛ بل يوجب ويجهد أن يحل قضاياها ، ويتلمس أن يتعرف علله الظاهرة منها والباطنة ؛ ثم هو لا يتجه من بعد ذلك إلى غير هذا ؛ فهو من المجتمع : ابنه البكر ووليدته الشمول برعايته - وإليه ؛ ولا ينبغي أن يعتمد عنه ويروح يغوص في لجج التيارات الفردية والثرعات الإنسانية التي تلتقي قيود الزمنية والمكانية هذا يعني - هو ما يذهب إليه دعاة الأدب للمجتمع ... ذلك النفر المغالي في إنكار الذات إلى حد غير متقبل عقلاً وبداهة لقد ظن أولئك الدعاة أن الأديب يحيد عن رسالته الروحية حين لا يبصر كل جهوده في توجيه المجتمع وحل قضاياها ؛ وارتأوا

الرئيس عن كرسية بالقوة وبعض اللوردات وكبار الموظفين بطرقون الباب في غير جدوى إلى أن قرى المقترح ووافق عليه النواب في حماسة عظيمة ، ومما جاء فيه قول النواب « إن من يحدث تنبيراً في الدين أو من يفرض ضريبة جديدة أو يدفعها بنير موافقة البرلمان فهو عدو للمملكة » .

ولما نما ذلك إلى الملك لم يسمعه إلا حل البرلمان فخله في اليوم الذي تمجد لاجتماعه بعد هذه الجلسة المشهودة ، وأمر الملك فقبح على بعض أعضائه وأرسلوا إلى السجن ، وكان في مقدمتهم سيرجون إليوت صديق همبدن وصاحب المقترح ، وبعد مضي بعض الوقت تاب الأعضاء مما فعلوا فخل سبيلهم إلا اليوت فقد ظل على إصراره . وساءت في السجن حالته ومشى السقم في بدنه فما زاده ذلك إلا عناداً وإصراراً . واقترب منه الموت بعد بضعة سنين فما أخافه شبح الموت ولا أوهن له اضطراباً ولقى النائب الشجاع حتفه بين جدوان السجن فكان أحد شهداء الحرية ، وكان من السهل أن يشتري حياته بأذغانه لمن سجنه ولكنه آثر ميتة البطل ؛ ولم يتورع الملك عن أن يكيد له وهو بعد رفات فنع أهله من أن يدفنوا جسده خارج السجن فورد حيث استشهد ، ودفن حيث أبت روحه أن تدفن . (يتبع)

التصنيف

وتتل بكنجهام بيد منتال لأمر لا يتصل بالسياسة فتتفس الناس الصعداء ، وخفف عنهم ذلك مهروق وتثورت شيئاً قليلاً ودأب الملك في جمع ضريبة التجارة ، وعاد الجند يفرضون على الناس لأطعامهم وإبرائهم أينما انتقلوا ، ونظر النواب فإذا ملتصق الحقوق لم يبق فيه من الحقوق شيء .

فلما اجتمع البرلمان سنة ١٦٢٩ كانت قلوب أعضائه مليئة بالسخط على الملك الذي نقض عهده ، وأخذ البرلمان يدعو إليه بعض المسؤولين ليستجوبهم عما عدم مخطئين فيه مما يتصل بحماية ضريبة التجارة فكان عمله هذا تحدياً لإرادة الملك .

وأعد بعض النواب مقترحات فخواه أن جباية هذه الضريبة عمل غير قانوني فليس على الناس أن يدفعوها ، وصاح فيهم رئيس المجلس أن الملك قد أمره ألا يكون موضع مناقشة ، ونظر الرئيس فكأنما انقلب المجلس بركاناً بلفظ اللحم ، وصعب عليه أن يتبين ما هز أرجاء القاعة من عبارات ساخنة فن احتجاج على تدخل الملك في إدارة الجلسة ومن هتاف بوجوب الأصرار على المقترح ، ومن صيحات موجهة إلى الرئيس أن ينزل عن كرسية إلى غير ذلك من مظاهر التعصب والسخط ، وذهب بعض النواب فأغلقوا باب القاعة وجاءوا بفتحها فوضموه على المنصبة وأنزل عنوان

وإني لأسمع الكثيرين يتساءلون حين يصادفون نتاجاً أدبياً ،
يتناول وقائع خاصة أو أحداثاً شخصية فردية بحثاً ، بحيث لا
تمس أحوال المجتمع في كثير أو قليل ... إني لأسمعهم يتساءلون
في أسى وحيرة : « ... وما جدوى هذا الإنتاج للمجتمع ؟ ! »

... وما أحرام أن يدبروا هذه الأسئلة التالية في عقولهم -
وفي قلوبهم أيضاً ! - ليجدوا المخلص من أسام وحيرتهم اللذين
لا مبرر لهما ... في نظري :

أليس هذا الإنتاج « إنسانياً » على كل حال ؟ أليس المجتمع -
في ذاته - ليس إلا مجموعة أفراد ؟ ... ومهما تمايزت المجتمعات
واختلفت الشعوب وتباينت النحل والأجناس ، ألا توحد بينها
جميعاً رابطة الإنسانية العليا ؟ ! ... ثم ... أليس في حكم البداهة
المقروءة أنت النفس الإنسانية - مهما تمددت في شكولها
الظاهرية ، وبالنسبة إلى الزمنية والمكانية - واحدة في جوهرها
وفي صميم فطرتها الأصيل ؟ !

... ولا ينبغي أن يخشى أولئك الاجتماعيون - الذين
يريدون أن يستأثروا بهذا الوصف وحدهم ... لست أدري
لماذا ؟ ! - لا ينبغي أن يخشوا أن ينحرف الأديب - إذا لم
يقيد إنتاجه بالقرص الاجتماعي والهدف النقي - إلى قضايا الشر
يؤيدها ويمجدها ويبحث على إثارتها ... فيهود بذلك المجتمع
ويصبح حرباً عليه ، حين كان يؤمل فيه - لو أنه توجه في
تياره - أنت يكون عوناً له ونوراً به يستضيء ... لا ينبغي
أن يخشى أولئك الاجتماعيون ، شيئاً من ذلك على الإطلاق ،
لأننا لا نعرف الفنان إلا خيراً ، ولا نعرف الفن إلا خيراً صرفاً
كله ؛ لأنه لا يجوز في الذهن - والفنون بالبداهة أسمى كنوز
الإنسانية ، وأعلى ما تعثر به من تراث - أن تكون نفس الفنان
مركبة على حب الشر والنزوع إليه . وما هذا الأدب الشرير الذي
منه يتوجسون وعلى مجتمهم منه يشفقون ، إلا غطاء ظاهري
نسجه المجتمع اللعين ، وظاهره في ذلك القدر فظمر على ينايع
الخير الثرة في النفس الفنانة الشفيقة

... لا خوف على الإنسانية من شر ظاهري زائف ، يفضحه
الخير المتأصل في النفس - ونسئ بها هنا نفس الفنان - تأصل
المخصب في الأرض الطيبة السمحة !

عبد العزيز الكرواني

(مصر الجديدة)

أن في انتهاجه المنحى الفردى - الذي يحصر حدود الكلام فيما
يعتلج في النفس ويدور حولها ويتملق بها ويرند إليها - انحرفاً
يستدل منه على أنه لا يمانئ المجتمع ويجرى وراء الأوهام
والتملات !

وهذا قول من شأنه أن يضيق من حدود مجالات الأدب
الفسيحة ، حتى يضيق الأدب به ويضيق بأصحابه على خلاف
ما يتوهمون !

إن الأدب - أسوة بغيره من الفنون - تعبير^(١) ... تعبير
بكل ما يزيد بهذه الكلمة من تبيان معاني « الإفصاح والإيانة
والتجلية » . وفن هذا شأنه وهذه طبيعته ، لا يمكن أن تقصره
على أن يكون صدى لمجتمع بعينه أو بيئة بعينها . وكل ما ينبغي
أن نطالبه به وننشده فيه ، هو أن يكون صادقاً مبدعاً صادراً عن
نفس تحس فتتأثر ثم تؤثر .

والكاتب حين يصدر في إنتاجه عن حس صادق مستوفز
للمؤثرات والحواجز ، وملكة مواتية ذلول توج فيها تيارات
الإلهام الدائق المتفجر - لا يمكن أن يكون « مسئولاً » بعد
ذلك ، عما إذا كان قد تناول شئون المجتمع أم طوى كشحاً عنها ...
لا يمكن أن يكون « مسئولاً » في « عرف » آلهة الفن
وحواريه وملائكه ... وشياطينه أيضاً ! ولا علينا بعد ذلك أن
يكون « مسئولاً » أمام المجتمع أو أمام الساسة المهرجين !

أجل ... حسب الأديب الفنان أنه عبر ... في صدق وإخلاص
يكون لها في القلب رنين ... حسب هذا ، وكنى به رصيماً -
أى رصيماً - يضم إلى تراث الإنسانية الرفيع !

وتعبير هذا شأنه من الصدق ونجوى نفحات الإلهام هو -
من غير شك - لدو أثر في السمو بالإنسانية عامة - أيا كان
لونه واتجاهه . ولا يعنيننا - بعد ذلك - أن يكون إحساس
هذا الأثر جلياً ظاهراً للعيان ، صادراً عن مجاوبة مجتمع بعينه ،
أم خفياً ينسرب إلى التراث الإنساني في خفة المصفور الدقيق
الرشيق ... بل إني لأراه أطيّب وأوقع في النفس ، وأقوى على
تحمل البقاء في رصيد الإنسانية ، حال خفائه وانسرابه إليه في خفة
المصفور الدقيق الرشيق !

(١) راجع في هذا المعنى - متوسلاً فيه - مقالا نفيماً مانعاً ،
للكاتب الكبير الأستاذ العقاد عنوانه « أ-ثلة وأجوبة » - ع (٥٩٩)
من الرسالة .